مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية
ISSN 2170-0370/E-ISSN 8127-2710
المجلد15العدد02 – 2024، ص ص 198-213

اللغة مفتاح لكل تأويل: التجربة اللغوية عند غادامير أنموذجا

Language is the key to every interpretation: Gadamer's linguistic experience is a model

ط.د محمد حنيشات [1]*، أ.د عبد العزيز خميس [2]

[1] جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، مخبر الاضطرابات المعرفية والسوسيوعاطفية (الجزائر)

hanichatmed@gmail.com

[2] جامعة قاصدي مرباح، ورقلة (الجزائر) khemisabdelaziz30@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2024/01/16؛ تاريخ القبول: 2024/05/24؛ تاريخ النشر: 2024/07/10

الملخص

عرف التأويل مع غادامير تطورا كبيرا، ماهية، ووظيفة، حتى أصبح ينعت بالتأويل الفلسفي، وقد جعل التجربة اللغوية مسألة مركزية فيه، بوصف اللغة معطى إنساني مؤول يجلي كل تأويل.

إن اللغة، إذًا باتت عنوانا لكل موضوع؛ فالتراث، والفن لغة. ويكون الوجود كذلك، وهكذا تصبح اللغة صفة لكل موصوف تأويلي، بها يوضح كل مبهم، ويبدد كل اغتراب.

الكلمات المفتاحية: اللغة، التأويل، التجربة اللغوية، غادامير.

Abstract

With Gadamer, interpretation experienced great development, its nature, and its function, until it became called philosophical interpretation, and he made the linguistic experience a central issue in it, describing language as an interpretable human given that makes every interpretation clear.

Language, then, has become the title of every subject; Heritage and art are a language. Existence is like this, and thus language becomes an attribute of every interpretive description, through which every ambiguous thing is clarified and every alienation is dispelled.

Keywords: language, interpretation, linguistic experience, Gadamer.

*المؤلف المراسل.

مقدمة:

منذ البدء كانت اللغة ملاذا لكل خطاب، ومن ثم فإن الهرمينوطيقا عند اليونان ارتبطت باللغة، بوصفها أداة للتواصل بين الآلهة والبشر، عن طريق هرمس، إلا أن مفهومها تطور كثيرا مع مرور الزمن، بحيث كانت تنجح في كل مرة في مسايرة التأويل، وظلت إلى جانبه تحارب كل اغتراب يلامس موضوعاته، وكأنها الدرع الواقي لتجلياته، لكن الأكيد أن هناك نوع من اللغة يستطيع أن يؤدي هذا الدور العظيم، إذ ليس من المعقول أن تكون اللغة العادية المبتذلة هي المقصود. فلم تعد اللغة مجرد وسيلة للترجمة فحسب، بل باتت وظيفتها أكبر من ذلك بكثير، في النصف الثاني من القرن العشرين خاصة، وهكذا بلغت مع الفيسلوف الألماني الشهير المعاصر "هانس جورج غادامير" مبلغ الصدارة. هذا ما سنحاول نقف عنده، من خلال تحليل المعطيات ذات الصلة، بغية إظهار وظيفية اللغة تأويليا، كما ارتأى هذا الفيلسوف، وعليه كيف استحالت اللغة إلى مسألة مركزية في تأويلية غادامير؟ ذلك هو السؤال.

I.1– في ماهية اللغة :

الواقع أن البحث في مسألة حقيقة اللغة فيما إذا كانت واحدة، أم متعددة، من المسائل التي أثارها "أفلاطون" قديما، الذي يرى أن اللغة رغم تعددها بين البشر–كلغات خاصة بهؤلاء، أو أولئك–إلا أن هذا لا يمنع من الإيمان بوحدة اللغة الإنسانية، من جهة أنها رمز إنساني مطلق، بمعنى أنها تملك طابع الكلية، إلا أن وجهة النظر هذه، ينظر إليها من زاويتين، زاوية إيجابية ربما تفيد الطابع الكلي للغة، وزاوية قد تحسب بأنها سلبية تتعلق بكون أن النظر إلى كلية اللغة يغلب عليه الطابع الصوري المثالي. ولقد كان هذا الطرح من صميم اهتمامات غادامير الذي أشار في معرض حديثه عن التجربة اللغوية، إلى وجود لغة إنسانية كلية، تعد مدارا للتأويل، تعبر في الوقت نفسه عن الحوار الإنساني (حوار بشري– بشري، لا إلهي مقدس)، وهذا يعني أن غادامير قد تأثر بأفلاطون، إلى حد كبير، لكنه لا يبلغ المطابقة؛

فإذا كان قد آمن بكلية اللغة، إلا أنهما اختلافا، حول مضمون هذه الكلية، فهي عند أفلاطون تجريدية صورية، في حين أنها تنأى عن ذلك عند غادامير، الذي ألبسها لباسا أنطولوجيا، يعبر عن مضمون واقعي، ينسجم مع مقاصده، وأغراضه التأويلية، ذلك أن هذا الأخير يولي اهتماما كبيرا للممارسة والتطبيق، بغية تحقيق غايات، ومرام براجماتية ، تضمن للكينونة اندماجها مع الراهن، اندماجا تنصهر فيه انصهارا، يعطي لوجودها وجودا آخر أسمى، تحقق فيه ومن خلاله الكينونة ذاتها.

إن المسألة التي أولاها غادامير اهتماما كبيرا، تتمثل في البحث عن حقيقة، ومضمون اللغة، فضلا عن جانبها الوظيفي، ولم تكن الدراسات التي تهتم باللغة من الناحية الشكلية، تعني كثير اهتمام لديه، ولذلك وجه نقده صوبها؛ إذ انتقد جل الدراسات اللغوية التي ركزت على شكل، وبنية اللغة، والتي تغاضت عن الاهتمام بالحياة الحقيقية للغة. للإشارة اللغة المستهدفة عند غادامير، هي لغة حوارية تساؤلية، جدلية؛ فهي حوارية لأن تتضمن تحاور الذات مع التراث، ومع الآخر، وهي تساؤلية؛ لأن السؤال والجواب قوامها، وهي جدلية ذلك؛ لأنها ترعى علاقة الجدل بين التفاهم -بوصفه غاية- وبين الحوار بوصفه وسيلة تشاركية للبناء، والإبداع، وسبيلا لتحقيق الفتوحات، بهذه المعاني ارتقت تأويلية غادامير للعالمية، « تتجلى عالمية التجربة التأويلية عند غادامير في التفاهم والحوار كعلاقة جدلية، منتجة وخلاقة، بين ال"النحن"و"التراث" وبين "الأنا " و"الآخر" قوامها السؤال والجواب، ودليلها المساءلة والتجاوب، استقصاء لا إقصاء، وحوار لا تحوير »،[1] فالحوار إذا مسألة، ومساءلة بَيْنِية، فبالنسبة للنحن والتراث — على سبيل المثال لا الحصر- فنحن نتحاور مع التراث من خلال التعامل مع نصوصه المختلفة، التي تقول لنا الكثير، حينما نتوغل في أعماقها، ونتعايش معها، نعيش فيها، وتعيش فينا، فيحيا التراث فينا، كما نحيا فيه، ويسكن فينا، كما نسكن فيه، في لحظة انصهار تعبر عن المشاركة في تشكيل معنى مشترك، لبناء حقيقة جامعة، وحضور مميز، ومن ثم فإن « هذا الحضور المزدوج("النحن" و"التراث") في

اللحظة الراهنة (انصهار الآفاق وتداخل العوالم وتشابك التصورات) عن مبدأ المشاركة في تشكيل معنى مشترك وبناء حقيقة جامعة وإدارة حوار مؤتلف ومختلف على قاعدة السؤال والمساءلة والجواب والتجاوب».[2]

اللغة التي ينشدها غادامير إذا هي اللغة المشتركة ذات الطابع الموضوعي، تعمل على تحقيق التوافق والانسجام، والتعاضد، وهذا النوع من اللغة – لا غير– يمكنه أن يحقق الفهم؛ إذ لا فهم إلا من خلال اللغة وبها، وما دام الأمر كذلك، فإن اللغة الانفرادية لا ترقى لبلوغ غاية الفهم؛ فالشخص الذي يتعاطاها قد يعجز في كثير من الأحيان عن التعبير عن مضمون أفكاره، مما يوحي بأن الفكر أوسع من اللغة،كما يتراء للكثيرين، أمثال "برغسون" الذي يرى بأن اللغة منقطعة، في حين أن الفكر متصل، ومنه لا يمكنها مسايرة ديمومة الفكر المتجددة.

إن اللغة التي يعنيها غادامير لغة الفهم؛ وهي لغة مشتركة، ذات طابع جماعي، كلية تتجاوز تمام التجاوز، التحيزات الضيقة، ولا تخضع لظروف المتحدث بها، ولا تنحصر في مدى حظه منها، وهذا يعني أنها ليست لغة قاصرة، تستمد قصورها من محدودية الفرد، وضيق أفقه، بل تتجاوز كل محدودية، وكل تقصير، إنها لغة اجتماعية جماعية شاملة، ونعتها بهذه الصفة، يذكرنا بتأكيد "دوركايم" على اجتماعيتها، الذي يرى بأننا حينما نتكلم فإن المجتمع يتكلم فينا. إذا هناك سياق مشترك عام للغة، يتجاوز الفردية، بل منه تستمد الفردية لغتها، بقدر الاستطاعة، ويلزم من هذا أن أي تقصير ينسب إليها ينبغي أن ينعت به المتكلم، وليس من المنطقي أن ينسب إليها، فالعجز عجزه، والتقصير تقصيره، فكما أن الطفل يتعلم لغة المجتمع الذي ينتمي إليه تدريجيا، بحيث ينال نصيبا محددا منها، ولا يمكنه بحال أن يستوعبها بالكلية مطلقا، فهو يبقى دوما دونها، وتبقى هي مرجعا لكل تفاهم قابل للحدوث، إنها لغة العقل، كما نعتها غادامير، حيث يقول: «... فاللغة هي لغة العقل نفسه».[3]

بناء عليه فإن الشمولية سمة جوهرية ليس في اللغة التي تعبر عن العالم، وعن التراث، وعن التاريخ، فحسب، بل هي سمة انطبعت بها تأويلية غادامير برمتها، وكان أسمى ما تسعى بلوغ الكونية، ومنها استمدت الطابع الفلسفي، فكانت تأويلية فلسفية بحق.

إن اللغة من هذا المنظور ليست شيئا متعذرا، بعيدا عن الواقعية، بل هي حامل لكل موضوع قابل للتأويل، تتميز بالقابلية للتأويل في حد ذاتها، ولهذا عندما نتناول التراث–على سبيل المثال–الذي جعل منه غادامير أحد مرتكزات تأويليته، بحيث أعاد له الاعتبار الذي يستحق، تناولا تأويليا، فإن قراءته تتم من خلال لغة عامة مشتركة كلية، ترتقي عن كل ما هو فردي محدود، واللغة من وجهة النظر هذه، ووفقا لهذه الشروط مفتاح لكل باب يطرقه التأويل، وبدونها تبقى كل الأبواب موصدة.

I.2– فينومينولوجيا اللغة من منظور تأويلي:

إن ديناميكية اللغة تكمن في التعبير عن الفينومينولوجي، بوصفها وسيلة لانصهار الآفاق، وضمانة لتحقيق الانسجام، والارتباط، والشعور بالمعايشة، وربط الماضي – وعيا– بالمعيش في أعلى تجلياته، كما تعبر عن الأنطولوجي، لأنها تجلي الكينونة ضمن الزمانية، زمانية الماضي بكل محمولاته، وزمانية الحاضر وتداعياته، بل قد ترنو إلى المستقبل بكل تطلعاته، من خلال قابليتها للتطور الدائم، وتركها للباب مفتوحا على مصرعيه أمام فتوحات جديدة متوقعة.

ليس من باب المبالغة إن قلنا بأن الحضور الأول في العمل الهرمينوطيقي لدى "غادامير" هو اللغة؛ فهي العين التي نرى بها الوجود ماضيا، لندركه بها حاضرا، ونتخيله من خلالها مستقبلا، وهي الأذن التي نصغي من خلالها لتحركات الموضوع القابل للتأويل، تراثا وتاريخا، وثقافة ووجودا، وأنسنة.

علاوة على ما سبق، فاللغة شرط لكل معنى، ومن ثم لكل فهم، وبدونها لا وجود للمعنى، ولا للفهم، مما يوحي ضمنيا بأنها النافذة التي نطل من خلالها عن كل موروث، وعن كل تاريخ، بل هي – بمعنى أكثر دقة–إجلاء، وتجلي لهذا كله، إن المسألة هنا عبارة عن

عملية تجلي متبادل في الحقيقة، يحدث تلقائيا، من باب التحصيل الحاصل، وبشكل عفوي دون أن يكون ذلك مقصودا، ولا هدفا، أو غاية منشودة؛ ففي الوقت الذي يتجلى الموروث، والتاريخ، والمعنى، في اللغة، تتجلي فيه هي أيضا؛ لأنها أداة لاستحضار هذا الموروث، وهذا التاريخ، ومن ثم المعنى، فاللغة تتكلم فينا، ربما أكثر مما نتكلم فيها، وبها، لإعادة بنائهم من جديد بما ينسجم ومتطلبات الراهن الحيوية الملحة.

إن توثيق الارتباط بينهم، وبين الأنا في لحظة انصهار يشكل الغاية القصوى، واللحظة الحاسمة في هرمينوطيقا "غادامير" إنها تعبير بشكل، أو بآخر عن علاقة اللغة بالأنا العاقلة الواعية، علاقة اللغة بالفكر، وبالكون؛ إذ لولا اللغة ما أقام الإنسان في العالم حوارا، ولا تفاهما.

الجدير بالذكر أن المحادثة، أو الحوار الذي يحتل نصيبا من اهتمام "غادامير"، وهو ما يقصده، حوار إنساني، أشبه ما يكون ب "الحوار السقراطي" الذي يكون بين البشر، معبرا عن طبيعة انشغالاتهم، وهمومهم، وحاجياتهم، وليس المحادثة والحوار الإلهي الذي يتسم بنوع من القداسة- كما قصده "هيدجر"، وللإشارة، فهذا مؤشر على وجود تباين بين وجهتي نظرهما في هذه المسألة- ، والأكيد أن الحوار يقتضي وجود لغة مشتركة، بين المتحاورين، وإن لم تكن، فسيعمل على إيجادها، وهو هنا لا يعني اللغة بمعناها الضيق، وإنما التقاطع في تحقيق التفاهم، من خلال الاهتمام المشترك بموضوع الحوار، بهذا الشكل فقط يصبح فهم العالم ممكنا، ويمكن أن نحصل على رؤية مشتركة إلى حد ما عنه، في حين أن أي تناول للغة خارج هذا الإطار – أي كما لو كانت لغة خاصة بالمعنى الضيق- لا يمكنه تحقيق الفهم الإنساني المشترك، الذي تتجلى فيه معاني الكينونة، وتحقيق الذات، والاجتماع الإنساني المطلوب، إنها اللغة الشاملة المتكاملة، التي تسمو فوق شتات اللغات، وتفرق منطوقها، لغة جامعة تتطلع للكونية، بل هي كذلك. «إن تصور غادمير سيقضي بنا إلى القول بأن الإنسان لولا اللغة لما أقام في هذا العالم/ حوارا وتفاهما، فالإنسان يملك عالما إلا بواسطة

اللغة، وهذا العالم هو عالم اللغة، الإنسان صنع عالمه في حدود آفاق اللغة، وهذا ما نتفق على تسميته مع غادامير بالطابع اللغوي لتجربة الإنسان بالعالم، واللغة وسيط كوني، ومنشأ حوار التفاهم من خلال منطق السؤال والجواب وانصهار الآفاق فاللغة تجسد الحقيقة لمبدأ نشاط التاريخ».[4]

تنشأ علاقة حميمة بين اللغة، والنص، من خلال محاولتنا قراءته تأويليا، تفضي إلى تجاوز حالة الاغتراب التي تسيطر على النص؛ إذ تمنحه الحياة، بفعل معايشة الواقع فينومينولوجيا، كما تجعل منه تجليا أنطولوجيا، في اللحظة التي يحقق فيها ارتقاءه من خلال اللغة، وبها « مهمة الهرمينوطيقا في تعاملها مع النص تجاوز الاغتراب التاريخي للنص، عندما يدخل النص في إطار سياق غريب عليه ولا يستوعب فيه، وتجاوز الاغتراب هنا يقتضي عملية موائمة(Appropriation) وهو مصطلح يعني في سياق تفسير النص الأدبي سوف تعني أن يجعل المفسر النص منتميا إلى ما أسماه هوسرل" العالم المعاش" أو إلى ما أسماه هايدغر" الوجود في العالم " وعملية الموائمة هذه لا يمكن أن تتم إلا من خلال الحوار الذي يسعى إلى الفهم: فهم تاريخية النص وما يقوله لنا »[5].

تشير المقاربة الهرمينوطيقية للغة إلى أن هذه الأخيرة يمكن أن تكون خير مترجم للكينونة، وللعالم من خلال تعبيراتها المختلفة، لأنها إذ تعبر عن العالم، وعن الوجود تعبر عن ذاتها في الوقت نفسه، من جهة أن لها تلك القدرة الكبيرة على تلخيص العالم والوجود واختصارهما، ولَم شتات المعنى الذي يعاني الاغتراب، جراء سوء الفهم، أو جهلنا بطبائع الأشياء، أو ربما أمور أخرى لا ندري. إن العالم والوجود، والكينونة وغيرها، والتراث عندما تحدثنا عن طريق اللغة، تشكل تمظهرا لتجلياتها المتباينة ف «مباشرية الكلام تؤسس لحضور الحياة، وبهذا" يؤخذ اللسان أنطولوجيا كتعبير أصيل، كحضور وتمظهر"».[6]

إن الذات تفهم نفسها من خلال اللغة، ذلك هو تحديها الأكبر، ورسالتها في الوجود، وبها تنفتح على العالم، وعلى ما حولها، سواء أكانت صيغتها كلاما، أم صمتا،

ولعلها تكون أكثر جلاء فينومينولوجيا في الصمت الذي يكون أبلغ من الكلام في حد ذاته «تتجذر فينومينولوجيا اللغة داخل فلسفة الصمت التي تجعل التعبير الخلاق متميزا من خلال اللغة الضمنية» [7]

I.3– هرمينوطيقا اللغة عند غادامير :

مسألة البحث عن الحقيقة في حقل العلوم الإنسانية، مسألة ارتبطت إلى حد كبير بمضمون اللغة في تأويلية غادامير، ذلك أن اللغة عنده لم تعد مجرد وسيلة عادية لتحقيق التواصل، بالمعنى المتداول كما معروف، بل هي أكبر من ذلك بكثير؛ لأن تأويل اللغة من منظور غادميري، يوسع دائرة الموضوعات التي تُسْتَهْدَفُ في بناء، وتكوين فكرة متكاملة عن فهم الظاهرة الإنسانية المتعددة المناحي، والأوجه، فضلا عن كونها غاية في التعقيد والتشابك، وبالتالي ليست المسألة الإنسانية سهلة المنال، ولا مبتذلة، كما تراءى للبعض. وعليه يعد من الإجحاف النظر إليها كما لو كانت موضوعا واحدا بسيطا يسهل استقراؤه وفق الأدوات العلمية الصارمة، يُفْهَمُ من ذلك أن هناك علاقة تلازم في الحضور بين اللغة وموضوع الدراسة الإنسانية، الذي يَبْتَغِي الحقيقة، وهذا يوحي ضمنيا، أن التلازم سيكون بين اللغة، والحقيقة في حد ذاتها، التي لم تعد هي الأخرى تحافظ على تلك الهوية المتضمنة لمعنى العلمية القطعي، لترتد إلى مضمون الإفهام.

بناء على ما تقدم فإن الانتقال من موضوع علوم الطبيعة، إلى علوم الإنسان، هو انتقال بين عَالمين، يبدو الاختلاف والتباين بينهما ظاهرا؛ إنه انتقال يلزم عنه بالضرورة تغير استراتيجي في الأدوات، وربما الأساليب، والطرائق، والغايات. لقد تبين من خلال التعامل مع الظاهرة الإنسانية، أن التفسير العلمي الذي يستند إلى منهج استقرائي صارم، قد يكون بلا جدوى؛ لأنها – أي الظاهرة الإنسانية–بحاجة إلى فهم أكثر منها إلى أي شيء آخر، وبالتالي تصبح الغاية المستهدفة هي تحقيق الفهم، تلك هي الرسالة التي بزغت بوادرها بصورة غير محتشمة مع التأويل الرومانسي، والتأويل التاريخي، عند شلايرماخر، ودلتاي، على التوالي، وتجلت أكثر فأكثر مع هيدجر، وبلغت ذروة الوضوح، والتجلي مع غادامير، حيث

انتقل التأويل عنده من الفهم إلى فهم الفهم. (في تأويلية غادامير مفردات يأتي على رأسها الفهم، بوصفه قضية مركزية، من قبيل: التراث والتاريخ، الفن، الحوار ومنطق السؤال والجواب، «وهكذا نعود إلى النتيجة القائلة إن الظاهرة التأويلية تدل ضِمْنًا أيضا على أولية الحوار، وعلى بنية السؤال والجواب. فالنص التاريخي الذي يصير موضوعا للتأويل يعني أنه يطرح على المؤول سؤالا. لهذا يتضمن التأويل دائما علاقة بالسؤال الذي طُرح على المؤول. ويعني فهم النص فهم هذا السؤال. ولكن هذا يحدث، كما بينا، من خلال إحرازنا أفقا تأويليا. ونحن نميز الآن هذا الأفق بأنه أفق السؤال الذي في داخله يتقرر معنى النص» فضلا عن الانفتاح على العالم، والوجود، ثقافة البيلدونغ، التواصل علاقة الأنا بالآخر، وعلاقتها بالعالم، تقريب الماضي من الحاضر، انصهار الآفاق، الكينونة، المعيش، هذه المفردات جميعها تجد ضالتها في التأويل، كما يجد التأويل ضالته فيها، وبالتالي فهي تنفرد بقيمة تأويلية مميزة في هرمينوطيقا غادامير، إضافة إلى –وهذا هو الأهم – تمظهرها في اللغة، التي تبقى ملاذها الأخير، و تُرجُمان تجليها الدائم.

I.4– اللغة والتراث :

إن مسائل التاريخ، والتراث يعتبرها غادامير ذات أهمية بالغة كمعطيات هرمينوطيقية، قابلة للتأويل، من منطلق أن المسافة الزمنية لا تشكل عائقا أمام العمل التأويلي، وينظر إليهما بالنسبة الجانب المنير، أقصد جانبهما الذي يعج بالدلالات، وكل ما له معنى في علاقته بالراهن، نظرة تراكمية، بخلاف شلايرماخر ودلتاي الذين يرايان أن التاريخ موات يجب دفنه بالتأويل، وعليه يؤكد غادامير على تواصلية التاريخ، ومن ثم التراث، إذا ما نُظِرَ له نظرة إيجابية، تستثمر هذا الكنز الدفين بالتنقيب تأويليا عن مكنوناته.

هكذا يعيد غادامير للتراث اعتباره، ليس على المستوى النظري فحسب، بل أعاد له هذا الاعتبار من الناحية العملية؛ وذلك عندما أتاح له فرصة أن يتواجد، بوصفه فاعلا، لا منفعلا، بحيث يندمج مع الراهن اندماجا وظيفيا، ينصهر فيه أفقه مع أفق الحاضر، إذ من الخسارة أن يترك التراث عرضة للإهمال، والاضمحلال.

إن التراث يشكل دعامة أساسية لبناء الحاضر، وأن التوفيق في تأويله، يعد لبنة قوية في تأويل الراهن ، ومن هنا يتضح أن الهرمينوطيقا تعتبر التاريخ جزءا لا يتجزأ من مشروعها« يقر غادامير بأن المسافة الزمنية أساس لدعم العملية الهرمينوطيقية، أي الأساس يستوعب التراث والمرجعية. يقول غادامير هذا الكلام لأنه يعتقد أن فن التأويل يسعى حيثما طبق إلى الرجوع إلى المصادر الأصلية »[8] ، والهدف من هذه العودة إلى الأصل،هو الحصول على فهم جديد للمعنى بعيدا عن التحريف، والالتباس، ولهذا يتعين علينا أن نحاوره سؤالا بجواب، من خلال التعامل معه بوصفه نصا ولا شك أن اللغة تلعبا دورا رئيسا في إجلاء تجليات التراث.

ولهذا في معرض حديث غادامير عن التراث، ينعته باللغوي «إن لحقيقة أن التراث لغوي من حيث طبيعة نتائجه بالنسبة للتأويلية. ولفهم التراث اللغوي أولوية خاصة على كل تراث آخر. وربما يكون للتراث اللغوي حضور مباشر مدرك حسيا أقل مما للآثار الفنية التشكيلية» إن إدراج اللغة هنا له أكثر من دلالة، وهذا لخطورتها بوصفها ظاهرة طالما التصقت بهوية الإنسان، بوصفها نافذته ليس لإدراك تراثه فحسب، بل وسيلته لكشف الكينونة في أنطولوجيا هذا العالم، مما يهون عليه فهم العالم برمته. فضلا عن كونها تشير إلى أهمية اللغة ودورها في التعبير عن مكنون التراث، كما توحي بأهمية التراث المكتوب خاصة المجسد في شكل رسومات، أو كتابات، أو حتى مجسمات ذات دلالة واضحة، أو رمزية تعبر عن تقاليد وثقافة وحضارة ما. فضلا عن الإشارة إلى كونها المترجم الأول للتراث دون منازع، كما توحي العبارة، بمعنى أكثر عمقا ألا وهو أن التراث بكل ما تحمله الكلمة من معنى يخاطبنا عَيَانًا، في كثير من الأحيان من خلال أَشْيَائِه ذات الدلالة المباشرة، أو الرمزية، لأقوام مروا من هناك، خلفوا وراءهم تركة (التراث) صمتها يعج بالكلام «إن تراثا مكتوبا ليس جزءا من عالم الماضي، بل هو يعلو بنفسه إلى ما وراء العالم الماضي في عالم معنى ما يعبر عنه. ومثالية الكلمة هي التي تعلو بكل شيء لغوي على التناهي والزوال اللذين يميزان البقايا

الماضية الأخرى. فليست هذه الوثيقة، بوصفها قطعة من الماضي، هي الحاملة للتراث، بل الحامل للتراث هو استمرارية الذاكرة. وعبرها يصبح التراث جزءا من عالمنا الخاص».[9]

انطلاقا من هذه القولة نرى بأن غادامير يلح على أهمية التراث المكتوب، أو اللغة المكتوبة المعبرة عن آثار الماضي، بوصفها تراثا، ويشير كذلك إلى أن ما يجعلها محافظة على رشاقتها، وبالتالي مفيدة عمليا كونها مشروطة بالذاكرة الجماعية، رغم اندثار زمانيتها المعبرة عن الماضي المنقضي، إن ما يجعلها متوهجة يقِضَةً دوما وعلى استعداد، ارتسامها في الذاكرة، بشكل يتيح لها الحضور متى دعت الحاجة، يجعلها متداولة، وحية في النفوس، ذلك هو المؤشر الذي يمنح التراث جدواه ويجعله خير سفير للتعبير عن الرسالة التأويلية. لقد تبين بشكل لا يترك مجالا للشك أن اللغة بوصفها ظاهرة الإنسان المعجزة سبيل التراث الوحيد للكشف عن تجليه، وما دام الأمر كذلك، فهذا يعني أنه من باب أولى أن تؤول اللغة في حد ذاتها ابتداء، وهو ما لم يغفل عنه غادامير، وخير دليل هو تناوله اللغة كرونولوجيا، كما سبق وأن ذكرنا؛ لأن هناك ارتباط بين تأويل لغويا، وفهم اللغة نفسها، فكلما تمكننا من فهم اللغة المدونة خاصة، تيسر لنا فهم التراث، أو غيره بوصفه محمولا للغة. إن الدور العظيم والخطير في الوقت نفسه الذي أعطاه غادامير للغة، نابع من إدراكه لفهم طبيعتها؛ فهي أكبر من أن تكون عاجزة عن مسايرة الفكر كما نعتها برغسون.

بناء عليه تتأكد أهمية اللغة في فهم الماضي، بكل ما يعج به من مكنونات، وكنوز، يمكن أن تفيد الأجيال اللاحقة، في فهم السابقة، مما يجعلها تختصر كثير من المسافات لتقريب الماضي منها، وتقربها منه، بشكل إيجابي، يعينها على التعايش مع الحاضر، وتحقيق الاندماج معه.

إن تفكيك ألغاز التراث وفهم طلامسه، وبالتالي ممارسة التنقيب الإيجابي عن جوهره، وجواهره، بوصفه أصلا للهوية، وأساسا لكل تقارب مع الحاضر، يتطلب تحقيق اندماج أفق

الماضي (التراث)، بالحاضر، ولا يكون ذلك كذلك إلا من خلال اللغة كحامل للثقافة، ووسيط جوهري بين هذا، وذاك.

فكتابات الحضارات القديمة المسجلة عل الجدران، ما زالت تعبر، وبشكل قوي جدا عن ثقافة أسلافنا، إنها تشير إلى طبيعة عيشهم، وعن بعض عاداتهم، وتقاليدهم، عن مستواهم الحضاري الذي يسجل نجاحهم، وربما بتفوق في التعايش مع واقعهم آنذاك، رغم بساطة العيش، والإمكانيات.

إن اللغة بكل رموزها، وعلاماتها، تعبر بشكل، أو بآخر عن تراث يقتضيه، ويتطلبه الحاضر بشدة، فأهمية اللغة من أهمية التراث، ربما أكثر، خصوصا في شقها المكتوب، يبقى المشكل الوحيد الذي يمكن أن يعرقل مسيرتها هو سوء الفهم، لا أكثر، ولهذا يبدو شلايرماخر محقا عندما عرف التأويل بأنه "تجنب سوء الفهم.

I.5- اللغة والفن :

إن الفعل الهرمينوطيقي لا يكتمل إلا أتى على جميع موضوعات التأويل، وعليه فإن الحقل الفني يعد المجال الأول الذي احتمى به غادامير للتخلص من قبضة الصرامة المنهجية العلمية، التي حاولت فرض منطقها على مجال العلوم الإنسانية، لكن السؤال المطروح: ماذا يعني فهم أثر فني؟ كيف يمكننا إدراك حقيقته بأفضل طريقة ممكنة؟ وبما أن الفن يقول لنا شيئا ما دوما، لهذا نتساءل ما الذي يمكن للغة أن تساهم به في إجلاء تجلياته؟

تلك هي الأسئلة التي يعنى بها تأويل الفن، لنقل بصورة أوضح أن ذلك هو موضوع التأويل الفني، وعليه تمهد هذه الأسئلة الطريق أمامنا لبلوغ حقيقة الفن، لكن مسألة بلوغ العمل الفني، وبأفضل طريقة ممكنة، ليست بالسهلة، ولا المبتذلة، كما قد تبدو لأول وهلة، فالأمر يتطلب الغوص والتنقيب، بدل الاستسلام لمنطق البداهة الأولى؛ ذلك أن حقيقة الأثر الفني يكون وراء المعطى المباشر، إنها على ما يبدو خفية مستترة، وهو ما يعمل التأويل على إجلائه كوظيفة جديدة للهرمينوطيقا في القرن العشرين بصورة تبدو أكثر نَظَارةً.

الواقع أن هذه الرؤية، عين ما رمى إليه غادامير من خلال تحليلاته؛ فقد عاين المسألة انطلاقا من نقد اغتراب الوعي الجمالي. اشتملت هذه المعاينة على تناول نقدي لمختلف المعطيات ذات الصلة بالجميل، وبعالم الفن عموما، فلقد اهتم على سبيل المثال بمسألة الذوق، تلك التي عالجها كانط من قبل في كتابه (نقد ملكة الحكم)، حيث ميز بين مجال الإستيتيقا (علم الجمال)، ومجالي السياسة والأخلاق، وبهذا العمل خرج على التقليد الذي درج عليه المفكرون منذ عصر اليونان، ففلسفة أخلاق الاعتدال لدى الفيثاغوريين، وأفلاطون، فضلا عن فلسفة أخلاق الوسط التي طورها أرسطو كانت فلسفة أخلاق الذوق السليم بالمعنى الشامل.[10]

صحيح أن الذوق مصدره الأول هو الذات المستقلة، لكنه يأخذ طابعا موضوعيا نسبيا، من خلال ما يصطلح عليه بالحس المشترك؛ إذ ينتقل من مسألة فردية إلى ما هو جماعي يتجاوز فرديته، هذا هو التصور الذي عمل غادامير على توضيحه، لكن لا أراه قاصدا إضفاء الطابع الجماعي بالمعنى الذي يريده أصحاب النزعة الاجتماعية، وإنما يريد أن يقول بأن الذوق السليم قاسم مشترك بين الفرد والآخرين.

يناقش غادامير قضية الذوق مرة أخرى حينما يربطه بالعبقرية، انطلاقا من وجهة نظر كانط في المسألة؛ إذ يقول: «إن تأسيس كانط علم الجمال على مفهوم الذوق ليس مرضيا تماما. ويبدو مفهوم العبقرية–الذي طوره كانط كمبدأ متعال للجمال الفني–أفضل بكثير من مفهوم الذوق ومناسبا لأن يكون مبدأ جماليا شموليا. وذلك لأنه يحقق مطلب الثبات في مجرى الزمن أفضل مما يفعل مفهوم الذوق»[11]. لقد رفض غادامير تماما فكرة التجريد المتأصل في الوعي الجمالي، ومن ثم كل دعوة جمالية متعالية، ومرد ذلك انسجام موقفه الرافض مع نزعته التي لا تنفصل عن السياق العام الذي تندرج فيه، المتضمن التاريخ، والتراث، وربط الماضي بالراهن، إلى جانب الالتزام بالفينومينولوجي، والأنطولوجي، والتوجه العملي. وهذا يعني رفض فكرة التأسيس لقيم الجميل ضمن الإطار الميتافيزيقي، وفكرة التسامي فضلا عن

علمنة الفن، وتأكيد التأصيل للمسألة انطلاقا من فكرة انصهار الآفاق، والاندماج، فالعمل الفني محكوم بزمانيته.

إن الغاية التي يسعى غادامير لتحقيقها، تتمثل في بناء تجربة فنية قوامها الاستمرارية، ذات مضمون تاريخي يجسد الحقيقة الفنية المنجزة من خلال تحصيل الفهم المبني على أسس لغوية. لا شك أن ارتباط اللغة بالفن مسألة محققة من باب التحصيل الحاصل؛ لأن اللغة هي ترجمان العمل الفني، وهي النور الذي يبدد عتمة الجميل، ويُبِينُ عن معانيه، ومفرداته، ففكرة اللعب التي أولها غادامير تأويلا فلسفيا لا تتضح معانيها، ولا تبدو ماهيتها الحقيقية إلا بواسطة التأويل اللغوي الذي يتناول اللعب، والترجيديا، فالشعر، وكذا المسرح، إلى غير ذلك بوصفها بنية محددة «الواقع أن ما يجري الكشف عنه هنا هو البنية التي يغلب عليها المجاز في اللغة، والتي تتجاوز كثيرا مجرد وظيفة تسمية الأشياء. تسمح لنا هذه " المجازية" بفهم مختلف مظاهر العالم المحيط بنا، بتنوعه وتقلباته». [12] وهذا يعني أن ثمة جملة من النعوت يراها غادامير ضرورية لتحديد دور اللغة، ومن ثم هويتها، فالانتقال من الذوق الذاتي، إلى الذوق الموضوعي العام، لا يتم إلا بواسطة هذا الفهم اندماجا، وانصهارا في الآفاق، ولا يكون كذلك إلا من خلال الحوار والمعايشة، والمساءلة للطرف المقابل للذات، الذي ما يكون عادة منفصلا عنها في البدء، لكنه سرعان ما يندمج معها، لكن ما يتعين التذكير به دوما أن اللغة المقصودة، هي تلك اللغة التي تدل على التوافق، والانسجام، ذلك« أن اللغة فيما يعود إليها، لا يمكن أن يفهم إلا باعتبارها تعميما لما تكشف عنه بالتوافق إنه ليس توافقا ممنهجا، كما لو أنه غاية محددة، وإنما التوافق الطبيعي "للعيش معا"في نفس الوسط اللغوي. الذي يجعلنا نرى ونسمع في اللغة، هو إذن"الحال كما يظهر ويفضي إلى اللغة"». [13]

يتيح المجال الفني، أو الفن عموما، فرصة كبيرة للتعبير عن كينونة الذات البشرية، بواسطة لغته الخاصة، وهنا نسجل ارتباط الفن باللغة، ذلك الارتباط الوثيق، ولهذا يمكن أن

نتحدث عن لغة الفن، وعن الفنون اللغوية؛ ذلك أن الفن يكشف عن جدواه تأويليا، حين يحدثنا عن هويته، وعن نجاحه في دمج كل ما يسهم في إنضاج المغزى التأويلي، لحظة انصهار أفق الكينونة بموضوعها، وأبرز مثال على ذلك لعبة المسرح عند الاكتمال، بوصفها بنية؛ أي كيانا قابلا للوصف، وللتجسيد في الآن نفسه، يمكن أن يعبر كنموذج للعب الإنساني، وبدون هذا الوصف لا يمكننا أن نقرأه تأويليا، ولهذا يقول غادامير:«...إن هذا التغير الذي يبلغ فيه اللعب الإنساني اكتماله بأن يكون فنا أدعوه التحول إلى بنية. فمن خلال هذا التغير فقط يحقق اللعب فكرته، وبذلك يمكن أن يُقصد ويُفهم بوصفه لعبا».[14]

II- الخلاصة و النتائج

بناء على ما تقدم لقد استطاع غادامير أن يلامس إلى حد كبير حقيقة اللغة، بوصفها أداة للتأويل، في الوقت الذي تم فيه تناولها تأويليا، وهذا الفتح الهرمينوطيقي الموفق إلى حد ما، أتاح له الوقوف على مختلف توغلات اللغة، وتشعب مسالكها، ونجاحها في الكثير من الأحيان في اختراق ما لا يخترق، وهذه الخاصية التي ربما تنفرد بها اللغة أكدت تواجدها في تمفصلات المواضيع والأشياء؛ فكانت مرآة للعالم، وللوجود، وللفن، بل وللكينونة، وبهذا تمكنت اللغة من الاستحواذ على التأويل عند غادامير، فكانت تأويليته الفلسفية لغوية بامتياز.

-الشروحات والتعليقات:

- أفلاطون (427-347 ق. م) فيلسوف يوناني مثالي شهير.
- برغسون (1859-1941) فيلسوف فرنسي، أحد أعلام العصر الحديث
- دوركايم (1858-1917) فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي، أحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث، وواضع قواعد المنهج السوسيولوجي.
- كانط، فيلسوف ألماني اشتهر بالفلسفة النقدية (1724-1804)

- المراجع:

[1]- غادامير، هانس جيورج، 2006، فلسفة التأويل، ت: محمد شوقي الزين، (ط2)، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ص25.

[2] – غادامير، 2006، فلسفة التأويل، ص25.

[3]– هانز جورج غادامير، المصدر نفسه، ص 526

[4] – مجموعة من المؤلفين الأكاديميين العرب،2013، فلسفة التأويل المخاض والتأسيس والتحولات، ط1، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر ص146.

[5] – سعيد توفيق، 2002، مقالات في ماهية اللغة وفلسفة التأويل، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ص163.

[6]– عمارة ناصر،2007، اللغة والتأويل، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، ص55. نقلا عن Jacob(André), 1976, "introduction à la philosophie de langage," Paris, p85,

[7]– عمارة ناصر، اللغة والتأويل، مرجع سابق، ص56. نقلا عن Jacob(André)، p29

[8]– عبد العزيز بوالشعير، 2011، غادامير من فهم االوجود إلى فهم الفهم، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، ص42.

[9]– هانز جورج غادامير، الحقيقة والمنهج، المصدر نفسه، ص513.

[10]– هانز جورج غادامير، الحقيقة والمنهج، مصدر سابق، ص96، بتصرف.

[11]– هانز جورج غادامير، الحقيقة والمنهج، مصدر سابق، ص117.

[12]– آن كوكولان، 2013، نظريات الفن، ت: د. محمد محمود، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، بيروت، ط1، ص84.

[13]– آن كوكولان، نظريات الفن، مرجع سابق، ص86.

[14] – هانز جورج غادامير، المصدر نفسه، ص183.